

نظرية النبوة عند الفارابي

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

— ٢ —

أثيرت مشكلة الوحي في العالم العربي منذ بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته . فكفار قريش ما كانوا يريدون أن يقبلوا أن محمد بن عبد الله ينزل عليه وحى سماوى ، وكثيرا ما ردوا جلتهم الحكمة المشهورة : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء . واستبدوا عليه كل البمد أن يتصل بالعالم الآلهى وهو بشر مثلهم يأكل ويشرب ويتردد الى الجوانيت والأسواق : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ؛ لولا أنزل عليه ملك فىكون معه نذيرا ، أو يأتى إليه كز ، أو تكون له جنة يأكل منها » بيد أن معجزاته بهرتهم وفصاحتهم أغمتهم وهم أهل القول واللسن ، وزعماء البلاغة والبيان . فأخذوا يتهمونونه تارة بالسكر والشعوذة ، وأخرى بالكهانة والتنجيم ؛ وعزوا اليه قوى خفية لا حصر لها . ولم يكن له من جواب على هذه الدعاوى الباطلة والاتهامات القاسية إلا أن يقول : « ما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلى » . فهو لا يجيء بشيء من عنده ، ولا يقترى عليهم الكذب ، وإنما يبلغ رسالة الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدي القوم الكافرين » . ونظرية الاسلام فى الوحي وطرقه سهلة واضحة . فهناك ملك خاص هو جبريل عليه السلام ، قادر على التشكل بأشكال مختلفة شأن الملائكة الآخرين ؛ وكل وظيفة تلتخص فى أنه واسطة بين الله وانبيائه . وعنه تلقى محمد صلى الله عليه وسلم كل الأوامر الدينية ، اللهم إلا فى ليلة المراج فقد اتصل بربه مباشرة واستمع ما قرض عليه وعلى أمته . ويجب أن نشير كذلك الى أن الأحلام وسيلة من وسائل الكشف والالهام ، فان النفوس الطاهرة تصعد أثناء النوم الى عالم الملكوت ، حيث تقف على الأمور الخفية والحقائق الغامضة . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ جهوته أحلاما آذنت بعلمته ، وكانت ارهاصا للنبوة

للسياسيين فى هذا الشرق عملا أفضل ولا أقوى ولا أرد بالفاذة من إحياء الحماسة فى كل شعب شرق ، ثم حياطتها وحسن توجيهها ؛ فهذه الحماسة الشعبية الدائمة القوية البصيرة هى قوة الرفض لما يجب أن يرفض ، وقوة التأيد لما يجب أن يقبل وهى تعد ذلك وسيلة جمع الأمر وإحكام الشأن وإقرار العزيمة فى الأخلاق وتربية الثقة بالنفس ، وبها يكون إذكاء الحس وتمويده إدراك الأعمال العظيمة والتحمس لها والبذل فيها

وما علة اللعل فينا إلا ضعف الحماسة الشعبية فى الشرق وسوء تديرها وقبح سياستها ، وإما لناخذ عن الأوربيين من نظامهم وأساليبهم وسياستهم وعلومهم وقنونهم فناخذ كل ذلك بروحنا الفائرة فى خمول وإهمال وتواكل وتفرؤد بالصلحة واستبداد بالرأى ، فاذا دينا دم فى أيدينا درم ، وإذا نحن وإياهم فى الشيء الواحد كالنحلة والذباب على زهرة

ليست لنا حماسة الحياة وبهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم ، وذلك هو السر أيضا فى أن أكثر حماسنا كلامية محضة إذ يكون الصراخ والصياع والتشدق ونحوها من هذه المظاهر الفارغة — تنقيحا للطبيعة الساكنة فينا وتنويما منها بغير أن نجهد فى التنقيح والتنويج . ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير ومنه كثير من هذا الهراء السياسى الذى يدور فى المجالس والأحزاب والصحف

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط بل على معاييه أيضا وعلى ضعفه بخاسة . والشعب الفائر فى حماسه لو نال حقين مغصوبين لماد نجسر أحدهما أو كليهما ؛ أما الشعب التحمس القوى فى حماسه ، فله غضب حقيق ونال أحدهما لماد فابتر الآخر

منذ

لنظا

الى المؤلف الصغير : وصلت رسالتك يا بنى وأرى لك أن تنتظر عشرين سنة ثم تؤلفها مرة أخرى

الراضى

من حوار ونقاش^(١) . وملأ اليهود كتب الحديث والتفسير
بإسرائيلياتهم ، وقالوا بالرجعة والتشبيه وخلق القرآن كما قالوا
بخلق التوراة من قبل^(٢) . وأرسل آباء الكنيسة على المسلمين
شواظاً من أسئلتهم واعتراضاتهم المتعلقة بمشكلة الجبر والاختيار
فزادوها تعقيداً ، وشغلوا الناس بها فوق عرفهم ومألوفهم ،
وذهبوا إلى إنكار أبدية عذاب النار فقال الجهم بن صفوان معهم
إن الجنة والنار يفتيان ويقضى أهلها^(٣) واجترأ الدهرية على أن
ينكروا الباري جل شأنه والعقاب والمسؤولية ، وقالوا إن هي
إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر

وقد سل العترة وغيرهم من مفكري الإسلام لهؤلاء وهؤلاء
سيف الحجة والبرهان وجادلهم جدالاً قد لا يجد له نظيراً في
تاريخ الأديان الأخرى . فأبى وأصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بلاء
حسناً في معارضة بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس . وناظر
أبو الهذيل العلاف التنوية في البصرة وهدى بعضهم إلى الإسلام .
وكان للنظام ، وهو أحدق الجدليين في الشرق ، قدم صادقة في
مناقشة الزنادقة والدهرية والديسانية . ثم جاء من بعده تلميذه
الجاحظ فسار على سنته ، وبذل في هذا النضال همه طائفة ومهارة
فائقة ، واستمان عليه باطلاعه الواسع واسلوبه المذبذبة وقلبه
السيال^(٤) . وفي كتاب الانتصار لأبي الحسين الخياط المعتزلي
الذي طبع في مصر أخيراً تفاصيل كثيرة عن هذه الملاحم
الكلامية والمعارك الجدلية . وكثر الحوار بين المسلمين والنصارى
من جانب وبين المسلمين واليهود من جانب آخر . وأخذت
طائفة من الاسماعيليين على عاتقها رد شبه مفكري النبوة والأنبياء
ومعجزاتهم . وفي اختصار كان القرنان الثالث والرابع للهجرة -
أو التاسع والعاشر للميلاد - ميداناً نسيحاً لجدال عنيف شمل
معظم أصول الإسلام ومبادئه

وليس هناك شك في أن التسليم بالوحي والمجازة أزم هذه
الأصول وأوجها ؛ فإن منكري النبوة ينقضون الدين من أساسه
ويهدمون الحضارة الإسلامية كلها . وعلى الرغم مما في هذه

وبشيرة برسالته : والرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءاً من
أجزاء النبوة . وفي القرآن الكريم سورة كاملة تشرح الأحلام
وأثرها في التنبؤ بالنبي ، ونفى بها سورة يوسف

لم يتردد رجال الإسلام في الصدر الأول مطلقاً في التسليم
بهذه الوسائل الخاصة بالوحي والالهام . ولم يحاول واحد منهم أن
يسأل عن النبوة في مرها وأسماها ، ولا عن المعجزات في عللها
وأسبابها . وآمنوا إيماناً صادقاً بكل ما جاء من عند الله دون
بحث أو تعليل . وقد عنوا منذ الفجر الأول للإسلام بالرؤيا
وتبويرها ووضعوا في ذلك أبحاثاً مستقلة لم تلبث أن كونت علماً
خاصاً . وإنا لنجد بين التابعين تلك الشخصية الجليلة المعروفة بين
رواة الحديث ، وهي شخصية ابن سيرين التي كانت تعد حجة
في تأويل الأحلام وتفسيرها . وعَلَّ هذا في الغالب هو السر في
أن المتأخرين نسبوا إليها في هذا الباب كتباً ليست من صنعها^(١)
بيد أن هذا التسليم الهادي لم يطل أمده ، وهذا الأذعان
الفطري لم يبق في مأمن من الشكوك والأوهام . فقد اختلط
المسلمون بناصر أجنبية مختلفة فنشت فيهم كثيراً من سمومها ،
ولم ترع أصلاً من أصول دينهم إلا وضعت موضع النقد والتشكيك
والتضليل . ولا غرو فقد كانت هذه العناصر موتورة من الدين
الذي أتى أديانها ومن الحضارة الجديدة التي سلبتها مجدها وعزها .

لهذا تألبت في كل جوعها ، وأخذت تحارب الإسلام بشتى
الوسائل لتأثر لنفسها ودينها وتسترد نفوذها وساطاتها ، ولكنها
عبثاً حاولت وبادت بالخيبة والفشل : « أنا نحن نزلنا الذكر وإنا
له لحافظون » . فالزردكية والمناوية من الفرس ، وأنصارهم من
زنادقة العرب ، بدأوا في القرن الثاني للهجرة ينشرون دعوة
التثنية ويهدمون فكرة التوحيد التي قام عليها الإسلام . وكلنا
يعلم خبر بشار بن برد وصالح بن عبد القدوس الثنويين اللذين كانت
لها مجالس خاصة تذاق فيها الآراء الزردكية والمناوية^(٢) السُّحْبَةُ
وغيرهم من براهمة الهند أخذوا في ذلك المهمل نفسه يتنادون
بتناسخ الأرواح ، وينكرون النبوة والأنبياء ، ولا يرون حاجة
البشر إليهم . وصاحب الأغاني يقص علينا حديث جرير بن
حازم الأزدي السلمي وما كان بينه وبين عمر بن عبيد في البصرة

(١) الأغاني ، ج ٣ ، ص ٢٤

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٧ - العبرستاني ، الملل ،

ج ١ ، ص ٨٥ - ٨٦

(٣) ابن حزم ، الفصل ، ج ٤ ، ص ٨٣

(٤) نيرج ، الانتصار ، مقدمة ، ص ٥٤ - ٥٨

Encyc. de l'Islam, II, 449

(١)

(٢) أحمد أمين ، نحي الإسلام ، ج ١ ، ص ١٥٧

أقيمت في « دار العلم » بالقاهرة في منتصف القرن الخامس الهجري ، ودرست فيها المشا كل الاسلامية على اختلافها^(١). وفي المجلس السابع عشر من المائة الخامسة الى المجلس الثاني والعشرين يمرض المحاضر لأقوال الراوندى في الطعن على النبوة ويعقب عليها بالنقض والرد . وهذه المجالس الستة هي التي نشرها السيوكراوس وترجمها الى الألمانية وعلق عليها تعليقا ضافيا يدل على اطلاعه الواسع وبخسه العميق في مجلة الرفستا الايطالية سنة ١٩٣٤^(٢) . فعلى لا نحوى كتاب الزمردة في مجموعه ، بل فقرات منه تولى الاسماعيليه مناقشتها وإظهار ما فيها من خطأ ومغالطة . وقد صيغت هذه المناقشة في قالب مشوق جذاب ، وإن تكن مسجحة سجعاً تقيلاً أحيانا . وفيها دفاع وردود عقلية هي أثر من آثار الثقافة الاسماعيليه المترامية الأطراف . ولا يتسع المقام لمرض هذه المناقشة في تفصيلها ؛ وسنكتفي بأن نستخلص دعاوى ابن الراوندى واعتراضاته

قد يكون أول شيء يلحظه المطلع على هذا الحوار هو ما في ابن الراوندى من حذق ومهارة ومكر ودهاء . يقف موقفاً بعيداً عن التحيز - ولو في الظاهر على الأقل - كي يجتنب اليه كل القراء ، فهو لا يمرض للنبوة بالنفي والانكار فقط ، بل يناقش موضوعها مناقشة جرة طليقة يأتي فيها على أقوال الثبتين والتكثرين . وكم نأسف لأن صاحب المجالس المؤيدية أهل جانب الاثبات في هذه القضية^(٣) . ولو واقفنا به لاستطعنا أن نحكم في وضوح ما إذا كان واضح كتاب الزمردة بكيل بكيلين . على أن هناك ظاهرة أخرى تؤيد أن ابن الراوندى يعنى في الدهاء والمكر ؛ فهو يطن في أول بحثه أنه لا يعمل شيئاً سوى أنه يردد أقوالاً جرت على ألسنة البراهمة ، في رد النبوات^(٤) . وسواء أكانت هذه الأقوال من آثار الفكر الهندي أم من اختراع ابن الراوندى فهي تلخص فيما يلي : إنكار للنبوات عامة ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، فقد لبعض تعاليم الاسلام وعباداته ، ثم رفض في شيء من التهم للمعجزات في جعلها . فأما الرسل فلا حاجة إليهم لأن الله قد منح خلقه عقولاً يميزون بها

الدعوى من جرأة وفي هذا الموقف من تهجم ، فإنا نجد بين المسلمين من وقفوه . ودون أن نمرض لكل من خاضوا غمار هذا الموضوع في القرنين الثالث والرابع للهجرة نشير الى رجلين : هما أحمد بن اسحق الراوندى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب . فأما الأول فشخصية غريبة للغاية ، ولا يعرف بالدقة تاريخ مولده ولا وفاته ، ويظن على الظن أنه مات في أخريات القرن الثالث . وهو من أصل يهودى نشأ في راوند قرب اسبهان ، ثم سكن بنداوات واتصل بالمعتزلة ، وكان من حذاقهم ، وعده المرتضى بين طبقتهم الثامنة^(١) . إلا أنه لم يلبث أن خرج عليهم لأسباب لم يجملها التاريخ بعد ، وحمل عليهم ، بل وعلى الاسلام وتعاليمه المختلفة ، حملة عنيفة . ولأزم الملحدين واتصل بهم اتصالاً وثيقاً . ويظهر أنه أضحى دسيسة ضد المسلمين يدبر لهم المكائد ويستأجر للطن عليهم وينشر فيهم عناصر الزيف والأحاد . ولم يخف أمره على بعض اليهود المخلفين الذين حذروا المسلمين منه وقالوا لهم : ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا^(٢) . وقد كتب كتباً كثيرة كلها انتقاص للإسلام ورجاله ؛ منها كتاب فضيحة المعتزلة في الرد على كتاب فضيلة المعتزلة ، الذى وضعه الجاحظ من قبل ، وكتاب الناصح يعارض به القرآن ، وكتاب الفرند في الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الزمردة في انكار الرسل وابطال رسالتهم^(٣) . والكتاب الأخير يصنينا بوجه خاص فإنه يعطينا فكرة عن مسألة النبوة ، وكيف كانت تثار في ذلك العهد . وقد بقى هذا الكتاب مجهولاً الى زمن قريب ؛ ويرجع الفضل في التعريف عنه الى صديقنا السيوكراوس الذى امتدى اليه في مخطوطة من المخطوطات الاسماعيليه الموجودة في الهند ، وهذه المخطوطة ليست إلا جزءاً من المجالس المؤيدية النسوبة الى المؤيد فى الدين هبة الله بن أبى عمران الشيرازى داعى الدعوة الاسماعيليه أيام الخليفة الفاطمى المنتصر بالله^(٤) وتشتمل المجالس المؤيدية في مجلداتها على ٨٠٠ معاصرة

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٨ - ٣٩ -

المرتضى : النية والأمل ، ص ٥٣

(٢) معاهد التصحيح ، ج ١ ، ص ٧٦ - ٧٧

(٣) نيرج ، الاتصار ، ص ٣٧ - ٣٨

(٤) P. Kraus, Beiträge zur isla mīchen Ketzergegeschichte, (٤) in Rivista (1934), p. 96

Hamdani, The Hist. of the Is mā'ili Da'wat, p p, (١)

126-139.

Kraus, Rivista, 96-109, 110-120. (٢)

Ibid., p. 96 (٣)

Ibid. (٤)

ولا نظننا في حاجة كذلك إلى سرد الدفاع المجيد الذي دمج به براع
الاسماعيلية ضدها ، وفي مقدور كل باحث أن يرد عليها بأرائه الخاصة
وأفكاره المستقلة ؛ وكل ما نريد أن نلاحظه هو أن ابن الراوندي
يردد نعمة ألفتناها لدى المعتزلة من قبل . فهو ينادى بالحسن والتبجح
العلقين ، ويذكرنا بذلك السؤال الذي وضعته مدرسة المعتزلة
لأول مرة وهو : هل الإيمان واجب بالشرع أو بالعقل ؟ بيد أن
المعتزلة المخلصين لم يستخدموا العقل هذا الاستخدام السيء ،
وبذلوا جهدهم في أن يوقفوا بينه وبين الدين ، وأن يردوا على
شبه الزنادقة والمحدثين بكل ما أوتوا من حجة بينة وبرهان قاطع .
ومسألة العقل والنقل هي عقدة العقدة ومشكلة المشاكل في ذلك
المعهد ؛ وستعرف فيما يلي كيف استطاع الباحثون الآخرون حلها
برهيم مذكور (تبع)

الخير من الشر ويفصلون الحق عن الباطل ، وفي هدى العقل
ما يفنى عن كل رسالة . يقول ابن الراوندي : « إن البراهمة
يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله
سبحانه على خلقه ، وأنه هو الذي يُعرف به الرب ونعمه ، ومن
أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب . فان كان الرسول
يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقييح والايجاب والحظر ،
فماقت عتا النظر في حجته واجابة دعوته ؛ إذ قد غنينا بما في
العقل عنه ، والارسال على هذا الوجه خطأ . وإن كان بخلاف
ما في العقل من التحسين والتقييح والاطلاق والحظر فحينئذ
يسقط عنا الاقرار بنبوته ^(١) . وسيراً في هذا الطريق العقلي
المزعوم يرى ابن الراوندي أن بعض تعاليم الدين منافية لمبادئ
العقل ، كالصلاة والنفل والطواف ورمى الحجارة والسمي بين
الصفاء والرواة اللذين هما حجران لا ينفعان ولا يضران . على أنهما
لا يختلفان عن أبي قبيس وحراء في شيء ، فلم امتازا على غيرها ؟
وزيادة على هذا أليس الطواف بالكعبة كالطواف بنبيها من
البيوت ^(٢) ؟ والمعجزات أخيراً غير مقبولة في جملتها ولا في
تفاصيلها ؛ ومن الجائر أن يكون روايتها ، وهم شرذمة قليلة ، قد
تواطوا على الكذب فيها . فن ذا الذي يسلم أن الحصى يسبح
أو أن الذئب يتكلم ^(٣) ؛ ومن هم هؤلاء الملائكة الذين أنزلهم
الله يوم بدر لنصرة نبيه ؟ يظهر أنهم كانوا مقلوئي الشوكة قليلي
البطش ، فأنهم على كثرتهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين معهم
لم يقتلوا أكثر من سبعين رجلاً . وأين كانت الملائكة يوم أحد
حين توارى النبي صلى الله عليه وسلم بين القتلى ولم ينصره
أحد ^(٤) ؟ وبلاغة القرآن على تسليمها ليست بالأمر الخارق
للعادة ، فإنه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من
القبائل كلها ، ويكون في هذه القبيلة طائفة أفصح من البقية ،
ويكون في هذه الطائفة واحد هو أفصحها . وهب أن عمداً
صلى الله عليه وسلم غالب العرب في فصاحتهم وغلهم ، فما حكمه
على المعجم الذين لا يعرفون هذا اللسان وما حجته عليهم ^(٥) ؟
لسنا في حاجة مطلقاً لأن نرد على هذه الشبه الواهية والدعاوى
الباطلة ، وسيدرك القاريء بنفسه ما فيها من تضليل ومغالطة .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

صحاح الإسلام

الجزء الثالث

للأستاذ

إبراهيم

يبحث في عقائد الفرق الدينية في العصر العباسي
الأول من معتزلة وشيعة ومرجئة وخوارج ، كما يبحث
في التاريخ السياسي لكل فرقة وفي أديها
يقع في نحو ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير وثمنه
عشرون قرشاً عدا أجرة البريد . وسيظهر يوم ١٠ نوفمبر
سنة ١٩٣٦

ويطلب من لجنة التأليف ومن الكاتب الشهيرة

(١) Ibid. 90 (٢) Ibid. 99. (٣) Ibid. 101

(٤) Ibid. 105 — 106 (٥) Ibid. 102